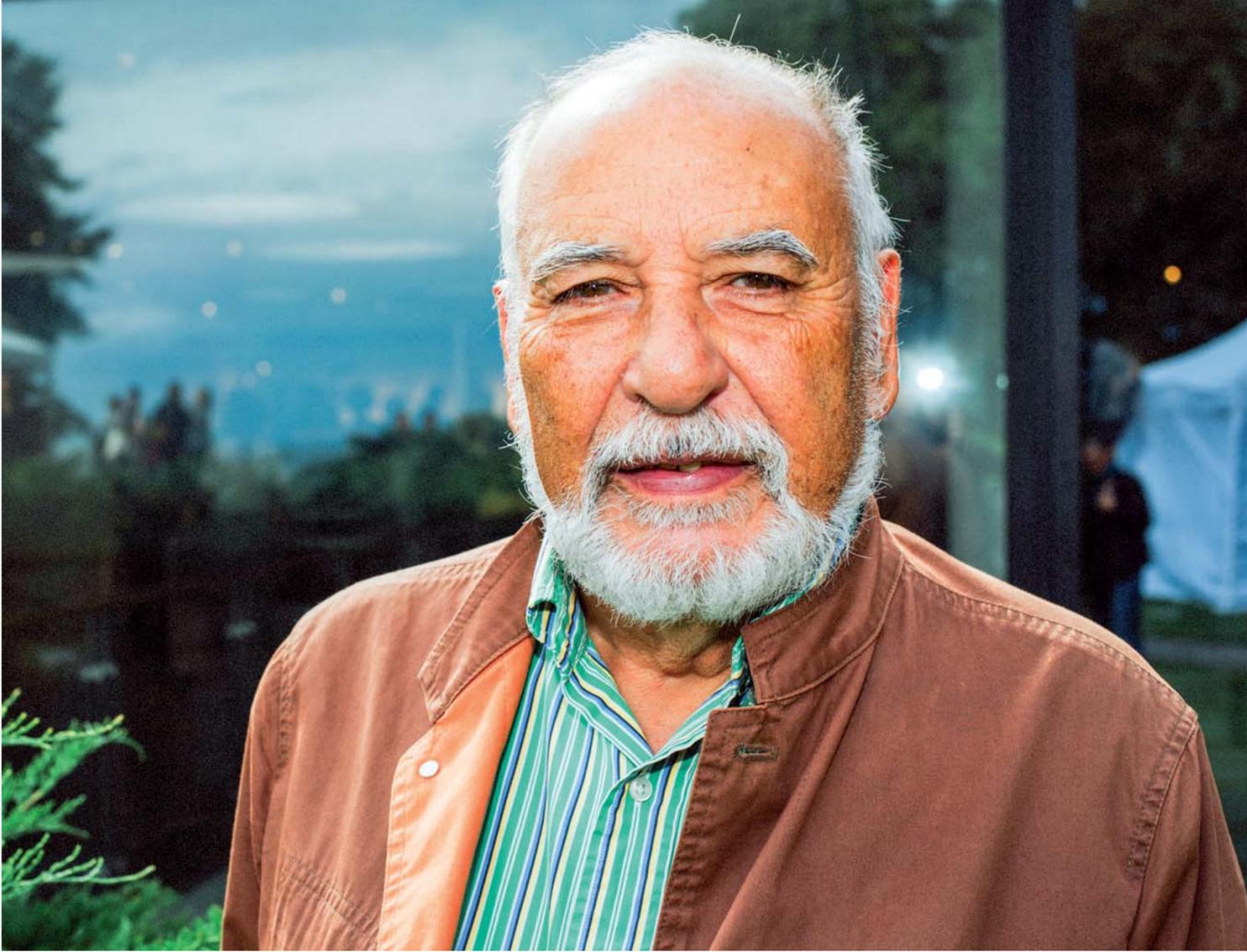


# قسوة الحكاية بعد 50 عاماً من الصمت

رواية سيرية للطاهر بنجلون عن سنوات الألام المغربية الكبرى



يكشف الطاهر بنجلون في روايته السيرية "العقاب" أحداثاً مثيرة تعرض لها قبل خمسين عاماً، يبوح بما تكتم عليه طيلة عقود، كمن يتخفف من أعباء الأسرار بإلقائها إلى الآخر، والتخلص من قسوتها التي لا تزال فاعلة ومؤثرة ومتجددة عبر الزمن.



هيثم حسين  
كاتب سوري

يلفت الطاهر بنجلون حين حديثه عن عمله (ترجمة، مصطفى الورياغلي، الدار البيضاء 2018)، إلى أنه اتخذ قراراً أدبياً بأن يحكي ما جرى في زمن الحاضر بطريقة واقعية بلا رتوشات أو محسنات. وأن يرويها كما حدثت في وقتها، يوماً بيوم، دون أن يكون لشخصها أدنى علم بما سيصيبهم في اليوم التالي.

## حجج عبثية

يسعى بنجلون -وهو روائي مغربي فرنسي، ولد سنة 1944 في طنجة، فاز بجائزة الغونكور الأدبية الشهيرة سنة 1987 عن روايته "ليلة القدر"، وله عشرات الأعمال الأدبية التي نالت حظها من الشهرة- لتوثيق اعتقال مشين تعرض له مع العشرات من الشباب المغربية الطامحين إلى الحرية والاستقلال.

ويسرد معه حكايات عشرات الطلاب الذين سجنوا، عقاباً لهم على تظاهروهم سلمياً في شوارع المدن المغربية الكبرى في مارس 1965، وكيف أنهم وجدوا أنفسهم مسجونين داخل ثكنات بذريعة الخدمة العسكرية، تحت رحمة ضباط تابعين للجنرال أوفقيير، كانوا مكلفين بإعادة تربيتهم وتعذيبهم، وأخذهم إلى منارات خطرة بحجج عبثية.

يحكي عن حادثة استدعائه من قبل النظام سنة 1966 على يد سلطات الإحتلال التي انتزعت، وهو لا يزال فتى غصاً لم يكمل العشرين من عمره، من حضن أسرته، وكانت الأوامر تنطلق بالتزامن مع السباب التي تنهال عليه، ولم تكن أمه ترى سوى السواد، وتجاهد كي لا تنهار فوق الأرض، وكانت الأوامر تقضي بأن يذهب إلى معسكر الحاجب بامر من الجنرال.

يصف ذاك العصر بأنه العصر الذي يختفي فيه الشبان، ويعيش الناس في خوف، ويتحدثون همساً احترازاً من أن تسجل الجدران الجميل المفوطة ضد النظام، ضد الملك ورجاله المقربين، عسكريين لا يتورعون عن أي شيء، ورجال شركة لباس مدني يتوارى عنفهم خلف عبارات جوفاء. يقول إن جريمته كانت المشاركة في 23

مارس سنة 1965 في مظاهرة طلابية سلمية ممتعت بالدم، وكان برفقة صديقه عندما شرع فجأة أفراد من فرقة خاصة في ضرب المتظاهرين بكل قواهم، من دون سبب. ويصور كيف استولى عليهم الفرع، فاخذوا يجرون طويلاً قبل أن يجدوا احيراً ملجأ في مسجد، ويتالم وهو يقول إنهم رأوا جنثاً فوق الأرض ممرغة في دمانها.

يستذكر أنه شاهد الفرع والحدق، وشاهد خصوصاً وجه ملكية أطلقت يد عسكريين ليستردوا النظام بكل الوسائل، ويؤكد أنه في ذلك اليوم تم الطلاق نهائياً بين الشعب وجيشه، وكان الهمس في المدينة يذكر أن الجنرال أوفقيير نفسه أطلق النار على الحشود من هليكوبتر في الرباط والدار البيضاء.



يستعيد بنجلون في روايته لحظات عصبية من حياته الشخصية ومن تاريخ المغرب الاجتماعي والسياسي

يحكي عن حادثة استدعائه من قبل النظام سنة 1966 على يد سلطات الإحتلال التي انتزعت، وهو لا يزال فتى غصاً لم يكمل العشرين من عمره، من حضن أسرته

يختتم في النهاية بقوله إنه عوقب لأنه تظاهر بهدوء من أجل قليل من الديمقراطية، وأنه لمدة شهور لم يكن سوى رقم تسجيل، وذات يوم استرجع حريته بعد أن كان قد فقد الأمل في ذلك، وتمكن أخيراً منظملاً كان يحلم، من أن يحب، ويسافر، ويكتب وينشر مؤلفات عديدة.. ويؤكد أن كتابة "العقاب"، والجرأة على الرجوع إلى تلك الحكاية، والعتور على كلماتها، تطلب منه ما يناهز الخمسين عاماً.

عليه، سيضحك أم سيقاوم، سيصبح ويصرخ أم يصمت ويتركهم يجزون رأسه مثل خروف. وبعد قص شعره، يشعر أنه صار قصيراً، يحس أنه من دون شعر، نمكش ومسحوق، وأنه حشرة بين أيدي المتوحشين، ومجزوز مثل خروف، مثل محكوم بالإعدام.

يشير إلى أنه كان يتذكر حكاية "شمشون ودليلة" والقوة الكامنة في شعر البطل، شعر أكثر، قوة أكبر. يقر بأنه صار شخصاً آخر، وأنه يجب أن يصمد في هذا الموقف، وإلا فإنه سيهلك، ما يحصل له يعني شخصاً آخر، يعيره اسمه، وأنه ليس سوى بديل، ظل أو خيال، وأن عليه ألا يشعر بشيء، وألا يفعل، وألا يفكر إلا في أن يرضى بما يحدث من غير اكتراث. ينوّه إلى أن الانقلاب الذي خطط له الجنرال أوفقيير وقاده ضد الملك سنة 1971، كان منقذاً لهم، لأن فشله دفع السلطة الملكية إلى معاقبة الضباط الذين كانوا مع الجنرال، وتم الإفراج عن السجناء في المعسكر التعديبي الذي طال لفترة طنوا أنها لن تنتهي.

وهم سيكتفون بقراءة ما بين السطور. يتحدث بأسى أن الغاية كانت تبرير الوسيلة في تلك المرحلة، وأن النظام والانضباط كان قبل كل شيء، ويحكي أن رفيقاً لهم مات خلال حصة تعذيب، استسلم قلبه، رفض أن يجيب عن أسئلة رجال شرطة متخصصين في ذلك النوع من الاستجواب. يقول إنه لا كلمات، لا أسئلة، ولكن صفتين أسقطتا ضرباً من فمه. ويسترسل كيف كان التعذيب يصل إلى صور وحشية إجرامية.

يذكر بنجلون في روايته أن الأمن الفرنسي المغربي كان قد تبنى أساليب المافيا في فترة الإحتلال، واستمرت شريطة البلدين بالتعاون على الرغم من أن الجنرال ديقول قد أفزعه ما حصل. ويتالم حين يتحدث عن أهله الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أوضاعه في المعتقل القاسي.

يصف لحظة الصدمة وبداية التعذيب، وكيف تعامل معه السجن الذي أخبره أنه سيستزغ منه كل ما هو مدني، وكان قبل ذلك يتساءل إن كان سيرتعد أم سيفغني

يقول إنه في تلك المرحلة من العمر كان من الطبيعي أن يرغبوا في تغيير العالم، وكانوا يريدون أن يناضلوا ضد الظلم والقمع وانعدام الحرية. ويصف كيف أنه كان من المتوقع أن يأتي رجال ليطلقوا باب الشخص باسم الحكومة، ولا يجزؤ على التحقق من هوياتهم، ويزعمون أنها مجرد مراقبة روتينية، ولقت إلى أن سيادة الاستبداد والظلم جعلت الحياة خوفاً.

## معسكر التعذيب

يستعيد اللحظات العصبية القاهرة حين أوصله أخوه إلى باب معسكر الحاجب، يقول له قبل التوجه نحو باب المعسكر، وبعد أن يحضنه بين ذراعيه ويشعر أنه يبكي، يهمس له بأنه سيرتد حتى الحق في معرفة سبب احتجازه في ذلك المكان ولا مدته، ويطلب منه أن يكون شجاعاً، وأن يوافيهم برسائل إن استطاع، ويعتمد على التورية في كتابته لها،

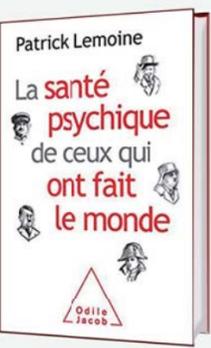
## رهانات جيوسياسية

في كتاب "فرع العالم" يلاحظ المؤرخ ومدير المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية توماس غومارت أنه لم يعد ثمة ما يعدل حسن سير كوكبا، فما نشهده اتفاقيات تلغى، وتحالفات تزداد هشاشة، وديمقراطيات ليبرالية تتسردى، وتحول جيو-اقتصادي يميل ناحية آسيا، وتهديدات قومية، ومخاطر إيكولوجية، وسياسة متهافئة تدار بالتغريدات... فهل صار العالم خارجاً عن التحكم، بفضل خبرته كمؤرخ، وتخصصه في العلاقات الدولية يوضح توماس غومارت التحول غير المسبوق في موازين القوى العالمية -مع صعود الصين، وأحادية الولايات المتحدة، وتشظي أوروبا، وعودة روسيا- إلى جانب المواضيع الأخرى كالطاقة والمناخ، وتغير الحروب، والعقوبات الاقتصادية، والإنترنت والقضاء والضغط السكاني والهجرة، والخاصة أن العولمة إذا كانت قد غيرت توزيع الثروة العالمية وسهلت إقامة الشبكات، فإنها لم تصح علاقات القوة، بالعكس هي زادت في آثارها. وأن الأوروبيين يعيشون في عالم تتقلص صورتهم فيه، وعليهم أن يستعدوا لذلك.



## المرضى الذين حكمونا

"الصحة النفسية لمن صنعوا العالم" كتاب طريف لعالم التحليل النفسي باتريك لوموان ينطلق فيه من استقرار الوثائق والسير والأخبار والطرائف ليشرح الصحة النفسية لكبار العالم، قدامى ومحدثين، ويصل إلى السؤال التالي: لماذا رضيت الشعوب أن تقودها شخصيات إن لم تكن مختلة، فهي على الأقل هشة؟ لأن أولئك القادة، رجلاً ونساء كانوا قادرين على السيطرة على هشاشتهم وربما استغلالها للوصول إلى سدة الحكم وتسيير شعوبهم؟ هي جولة طبية في تاريخ أعلام بارزين، من كاترين الثانية أو الكبرى إمبراطورة روسيا وألكسندر الأكبر وجان دارك إلى ونستون تشرشل وشارل ديغول وآخرين كشف عنهم هذا الطبيب المتخصص من خلال ماترهم وأقوالهم ورسائلهم، ومن خلال ما كتب عنهم معاصروهم، وعرض لسيرتهم في شيء من الطرافة، دون استنقاص لمكانتهم، أو تشكيك في دورهم. ومن وراء ذلك هو كتاب يسلط الضوء على نفسية رجل الدولة.



## عودة الأصنام

أمام عودة المعتقدات والأيديولوجيات والأخبار الزائفة من كل نوع، يستدعي بيير بنتاتا في كتابه "فجر الأصنام" نيشته وفرويد وريمون أرون وكليمان روسي إلى رحلة مشوقة بحثاً عن العقل المفقود. ألا نتشعرون أن العقل غادرتنا؟ يقول الكاتب. حيثما ولينا وجوهنا الفينا المذاهب السياسية والنظريات العلمية وكل أشكال التحليل تركت مكانها لمعتقدات دينية تتدري في تبسيط أفكار صارت شعارات، ونسبية الفكر، ونفي الواقع لفائدة الفيك نيوز. وأيا ما تكن الظاهرة فكل واحد يرى فيها تأكيداً لأيديولوجيته إلى حد يجعل النقاش مستحيل. في كل مكان، عادت الأصنام إلى الظهور، وصذعت أسس مجتمعاتنا، تلك الأسس التي تقوم على البحث عن الحقيقة وتقاسم سرية مشتركة. وبعد أن يتساءل "كيف انحدرتنا، نحن ورثة الأنوار، الذين يعيشون تحت حكم العلم والتقدم التقني، إلى الدغمائية؟" يميظ اللثام عما يدع الغرب اليوم، ومنذ أصوله الأولى، إلى ابتداء أو هام يخضع لها.

